

✽. المقال الثالث :

✽. الغدامي يُعلنُ موتَ النقدِ الأدبيِّ (١).

.....

﴿ ما يترأى لنا جمالياً حداثياً في مقياسِ الدرسِ الأدبيِّ : هو رجعيٌّ ونسقيٌّ في مقياسِ النقدِ الثقافيِّ ... ؛ وبما أنَّ النقدَ الأدبيِّ غيرُ مؤهَّلٍ لكشفِ هذا الخللِ الثقافيِّ : فقد كانت دعوتي بإعلان موت النقد الأدبيِّ ؛ وإحلال النقد الثقافيِّ مكانه ﴾ .

عبد الله الغدامي

« النَّقْدُ الثَّقَافِيُّ »

.....

ما يترأى لنا النِّيَّةُ التي لا يُخفيها كتاب الدكتور عبدالله الغدامي ﴿ النقد الثقافيُّ : قراءةٌ في الأنساقِ الثقافيَّةِ العربيَّةِ ﴾ : مثلت مطلع الألفية الثالثة التي صدر فيها الكتاب انقلاباً آخر في الخطاب النقديِّ الحديث على مُستويين : - شخصيٌّ : يتصل بتحويلات الغدامي النقديَّة : من اصطفافه الحدائِيَّ المُبكرِ ضمن الدعوات النَّصويَّةِ ؛ فالبنويَّة والتفكيكيَّة ؛ ثمَّ القراءة والتلقِيَّ ؛ وصولاً عبر الاهتمام بالنقد النسويِّ والألسنيَّة ؛ إلى الدراسات الثقافيَّة ؛ فالنقد الثقافيِّ .

(١) - للدكتور حاتم الصكر .

وبهذا الأخير محا الغدامي قناعاته وتوصلاته؛ واستدار: ليُراجعها بجرأةٍ تُحسب له وتدعو للثمين والإشادة كى لا تظلل الثوابت ذات هيمنة على الفكر بينما يتغير كلُّ شىءٍ حولنا؛ وإن كانت تلك المراجعات الحادة على المستوى العملى تُؤشِّر إلى هشاشة النظرية النقدية العربية؛ وإمكان حصول الاستبدالات والانقلابات فيها: لطبيعتها المُتقدمة للمركز والمرجع والمقرب المناسب المؤدَّى إلى فحص النصوص؛ أو وصف علاقتنا بها - كما يقترح الغدامي - فى واحدةٍ من مراحلهِ النصويَّةِ التى غادرها لاحقاً.

ما يتراءى لنا جمالياً وعلى المستوى الموضوعى تمثل أطروحة الغدامي حول النقد الثقافى نموذجاً للناسخ والمنسوخ الذى هو أحد المشغلات النسقية التى فات الغدامي رصدها؛ بل كان ضحيتها حين رأى ألا حياة للنقد الثقافى إلا بما أسماه «موت النقد الأدبى»؛ فكان «الثقافى» ناسخاً؛ و«الأدبى» منسوخاً؛ مُذكراً بـرولان بارت وإعلانه الشهير عن «موت المؤلف»؛ رغم أن بارت يتحدث عن إجراء تكتيكى مرحلى فى عملية القراءة؛ أشبه بالتخدير الموضعى لإجراء عملية جراحية لا يلغى بسببها العضو المخدر من الجسم.

أما الغدامي: فيدعو استراتيجياً لـ: «موت النقد الأدبى»؛ بثُهمة وجود الأدبية والشعرنة فيه؛ وانصرافه إلى البحث فى جماليات يصنعها مجازاً لا حقيقة تسنده كما يرى.

وتغدو التُّهم الموجهة للنقد الأدبى نواقص تُحسب على الحداثة ذاتها؛ التى

## مناهج النقد الأدبي

كان الكتاب يُحاول جاهداً إثبات رجعيّتها؛ ويُسنّفه خطابها عبر انتقاء شاعرين من أعلامها في الشعر العربيّ خاصة .

ولا أدري لماذا البحث عن الأنساق الفاعلة في الثقافة العربيّة عبر الشعر فحسب وليس السرد مثلاً؟! .

أليس في هذا - مرّةً أُخرى - سُقوطٌ في خطاب النقد الأدبيّ المرفوض من الغداميّ؛ والمتمركز حول الشعر؛ أو ما يُسمّيه الكُتّاب: الهيمنة الشعريّة؟! .

- رَجْعِيَّةُ الحَدَاثَةِ !!

قراءة الكتاب بدلالاته البعيدة ومراميه: أعطتني القناعة بأنه مُحكمةٌ للحداثة؛ ومُحاولة إثبات بُطلانها كمشروع؛ ولكن بطريقة ذكيّة تنسب لها صفات: الرجعيّة؛ والمُناقضة؛ والتمويه.

فالحداثة كُلّها - وليس النقد الأدبيّ النَّسَقِيّ وحده - مطلوب الموافقة على شهادة موتها التي حرّرها الغداميّ .

وَرَأَحَ في سبيل ذلك يُحاكم نموذجين مُعاصرين؛ ومثلهما من الأسلاف: لإثبات ذلك:

فكان أبو تمام والمتنبّي ضحيتي الثُّراث؛ ونزار قبّاني وأدونيس - والأخير خاصة !! - ضحيتي المُعاصرة .

وإذا تمّ تسفيه حداثة الأربعة: فقد سقط مشروع الحداثة ومُبرراتها؛ وذلك يُذكرني بواقعتين مُماثلتين:

## مناهج النقد الأدبي

فالباقلائي في (( إعجاز القرآن )) أراد تسفيه الشعر قديمه وحديثه: فهدم مُعلّقة امرئ القيس وقصيدة للبحترى؛ وأفرغهما من الشاعريّة والهدف أيضاً.

كما فعل العقاد في (( الديوان )) الشيء نفسه: حين أراد نقض خطاب النهضة في مرحلتها الإحيائية؛ فاستهدف (( شوقي ))؛ وتمحّل في عرض عُيوب شعره.

وسيجد القارئ أن الغدامي لإثبات رجعية الحداثة وزيف خطابها: يُحمّل النصوص ما لا تحتل بنائياً؛ ويعتمد الأخبار والروايات والتفوهات؛ مما كان يراه في مرحلته النصّوصية سياقات خارجية لا يجب إقحامها في قراءة النصّ.

وسيردّ الغدامي على خُصومه مُتّهماً إيّاهم بالدكورية والفحولة؛ يُريدون منه الثبات على الرأي كجزء من الرجولة النسقية؛ لأنهم أنكروا مثلاً أن يكون المتنبي شحاذاً (( وأقل الشعراء اهتماماً بالإنسانيّ وتحقيراً له )) في دراسة الغدامي ٢٠٠٠ م بعد أن كان في دراسة له عام ١٩٩٤ م: (( يُقدّم لنا - أي المتنبي - رؤية شعرية جديدة تتمخض عن شخصية نُصوصية فريدة ومتميّزة ومختلفة. )) !! .

وتتمدّد مجالات المرفوضات لدى الغدامي في النقد الثقافي هكذا:  
- موت النقد الأدبيّ .

- رجعية الحداثة وشعرائها قديماً وحديثاً .

## مناهج النقد الأدبي

- تحميل الشعر وزر (( النموذج السلوكي الثقافي النسقي الذي يُعاد إنتاجه بما أنه مُنغرسٌ في الوجدان الثقافي )) .

فكان الخطاب الشعري مسؤولاً عن خراب عمّ الخطابات الأخرى وليس العكس؛ أي: لم يجد الغدامي سوى الخطاب الشعري بنسقيته المرفوضة مسؤولاً عن خراب الشخصية.

### ﴿ النِّقْدُ الأَدَبِيُّ - الحَدَاثَةُ - الشُّعْر ﴾

تلك هي الكائنات المُستهدفة للتضحية بالموت والإتلاف: يُولد النقد الثقافي وكأن حياته لا تكون بجوارها؛ بل بإعدامها.

### ﴿ ذَاكِرَةُ المِصْطَلَح ﴾

يذكر الغدامي مراجع تبنيه للنقد الثقافي؛ وفي مُقدمتها: آراء فنسنت ليتش: الذي أصدر كتاباً بعنوان الغدامي نفسه عام ١٩٩٢ م؛ ولخص الغدامي أبرز ما رآه من عناصر في دعوة ليتش: لنقد ثقافي ما بعد حدائى وما بعد بُنيوى؛ ولكنه مُستمدٌ من نُقاد أدب؛ مثل: بارت؛ وديريدا؛ وفوكو؛ مع تباعد حُقول عملهم؛ لكن الطابع الأدبي لا اشتغالاتهم النقدية يُرينا الجذر الأدبي للنصوصية التي تأثر بها ليتش؛ وكانت مُستنداً لتوسيع شيئين فات الغدامي التذكير بهما؛ لنرى أنهما لا يمكن أن يندرجا مرحلياً في اهتمامات النقد الأدبي العربي إلا بعد حين؛ وهما:

١- توسيع مفهوم النص: ليشمل الكتابات المابعد حدثية كلها؛ كالمذكرات والرسائل والأخبار؛ وأى فاعلية يمكن أن تُشكل كوجود نصاً مُستقلاً.

٢- توسيع مفهوم الثقافة ذاتها: لتشمل الجديد المخترع في الرقمنة والتواصل الشبكي والتقنية الفائقة وغيرها مما يُقدّمه العلم يومياً للحياة والاستخدام الإنساني.

فتوسيع النص وتوسيع الثقافة لا يتمان عندنا في اللحظة التي حاكم فيها الغدامي نقدنا الأدبي وشعرنا وحدثنا؛ بسبب قوّة الأنساق الفاعلة في ثقافتنا العربيّة؛ وليس لقوّة أو أثر الخطاب الشعريّ الذي ليس له تلك السطوة في السياق الثقافيّ العام لأسبابٍ معروفةٍ تُلخصها قوّة الخطابات الأخرى: سياسيّة؛ ودينيّة؛ وقبليّة؛ وهو ما لم يرد الغدامي أن يُريه لقارئه؛ كي تظل مرفوضاته مُدانة وتُفسح للنقد الثقافيّ وحسب في الفاعليّة الثقافية.

لقد غابت عن أطروحة الغدامي سلسلة إجراءات منهجيّة كان لها أن تُكمل رؤيته؛ ك: تعريف النسق؛ وعرض مفاهيمه؛ وكذلك: الثقافة؛ والنقد؛ والقراءة؛ وهي من مُستلزمات الدعوة لقراءة ثقافيّة بديلاً عن النقد الأدبيّ وجماليّاته وشاعريته.

كما أن العنوان الثانويّ للكتاب أسوة بكتاب ليتش ينص على بعضها.

### ﴿المجازفات؛ والحقائق﴾

بسبب غياب القراءة السياقيّة لدى الغدامي يسلب من النصوص ما يُحفّ بها من عوامل؛ رغم اهتمام النقد الثقافيّ بالجانب التأويليّ وقراءة الأنساق المضمّرة؛ وكشفها في طيّات النص؛ فالمدح مثلاً في الشعر العربيّ

هو نفاقٌ وشحاذةٌ وإفرازٌ لنسقى يصل إلى حدِّ صناعة الطاغية !! - كما يراه الغدامى !! - ؛ ولكن القراءة النَّصِيَّة تُعلِّمنا في أبعدياتها - وكما نصَّ عليها الغدامى نفسه في دراساته المؤثِّرة المبكِّرة كالخطيئة والتكفير - أن نقرأ النَّصَّ بالكيفيَّة التي عَبَّرت عن غرضه دون محاكمة الغرض نفسه ؛ لكن الغدامى يرمى الشعر المدحى أو الهجائي بالنفاق والتزلف والتكرار النسقى وصناعة النموذج الفحل ؛ وسوى ذلك مما يتضاءل إزاءه الفنُّ الشعريُّ وآليَّاته ووسائله ؛ أو ما دعاها الغدامى مُنزِعجاً ﴿جمالِيَّاته﴾ .

وهو يرى أن نَبَدَ المديح فضيلةٌ ؛ استحق عليها عمر بن عبدالعزيز أن يُوصف في كتاب الغدامى بأنه : «أولُّ رُوَادِ النِّقْدِ الثَّقَافِيِّ ؛ لأنه لم يرضَ بالمديح .» !! .

لكنه لم يذكر مثلاً هجر شعراء كُثُر للمديح ؛ ك: المعرِّي ؛ وابن خفاجه ؛ وكذلك بعض النُّقَّاد والمُفكِّرين ؛ ك: الجاحظ ؛ الذي لم يعمل لدى خليفة ؛ بل عاش من مهنة الوراقة والكتابة .

إن انتزاع النُّصوص من سياقاتها وقراءتها اجتزاءً ؛ سببت أذىً للنُّصوص ذاتها ؛ فنزار ليس مكافحاً حُرِّيَّة المرأة في مُجتمعٍ قبليٍّ ورجعيٍّ ؛ بل هو مريضٌ ؛ يُريد أن يبنى جمهوريةً للنساء كي يستحوذ عليهن !! .  
كما أن أدونيس يُعلَى ذاته ؛ وكأنه لا يُعبِّر عن ذاتٍ جمعيَّة .

وقد كانت القراءة النحويَّة أحياناً سبباً في سوء الفهم ؛ كتفسير ﴿أنا﴾ المتنبي أو أدونيس ونزار بأنها ذاتهم المعينة لهم تماماً ؛ وليس الجماعة التي يعيشون

بينها.

كما أن كاتب النص يكون مالكة في هذه الحالة ؛ وكل إشارة فيه تعود إليه ؛ وهذا هو لبُّ اختلافنا كُنُصُوصيين مع القراءات التقليدية.

في مبحثٍ مهمٍّ ولمَّحٍ عن العصا ودلالاتها في كتاب الجاحظ: يغيب عاملٌ سياقيٌّ لم يذكره الغداميُّ مرَّةً واحدةً ؛ وهو الشفاهية ؛ فالعصا أداةٌ درسها علماء الشفاهية بكونها استعانة للتوصيل ؛ إحساساً من الشاعر وهو يُلقى نصَّهُ شفاهاً لُستمع بأنه بحاجة لهذه الأدوات المساعدة لتوصيل نصِّه .

ويغيب العامل السياقيُّ عن تحليل الغدامي ثقافياً لظاهرة الكرم ؛ فهي عنده علامة فحوليةٌ ؛ وليست بسببٍ سياقيٍّ هو الجوع والقحط في الجزيرة المنتجة لهذه القيمة ؛ فصار الكرم مآثرة بوجود العوز .

بهذه المحاكمة: ﴿ للحدائث ؛ والشعر ؛ والنقد الأدبي ﴾: تغدو عملية القراءة وتلقى الشعر نسقيةً أيضاً ؛ فيكون موت النقد الأدبي شاملاً لما يتبعه من أعرافٍ ؛ كقراءته وتحليله ؛ لأنها ستُشيع النسقية التي يُبالغ الغدامي في التخويف منها ؛ مع أنها بنى موجودة في هيكل الشخصية ؛ وليس الشعر والنقد بانواعه حتَّى الثقافيُّ المُبشِّر به في الكتاب إلا مظاهر لها.

أما المحاكمة النصية - أي التحليل والاستنتاج - فهي أدوات جدالية يتم لى عنقها لتدخل في عملية شائكة ؛ خلاصتها: إحلال النقد الثقافي مكان الأدبي !!.

فلننظر مثلاً واحداً: هو تعليق الغدامي على قول المتنبي:

أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْرًا مُتَمِّمٌ؟!!

فقد قال الغدامي إنه قد هزأ بقوله هذا بالحُبِّ والتشبيب؛ بينما كان المتنبي يثور على المطلع التقليديُّ المُقرَّ في عمود الشعر؛ وهو البدء بالغزل مهما كان غرض القصيدة!!.

فكيف صار الهدف أو الاعتراض الفنيُّ للمتنبى دليلاً على تحقيره للآخر والهزء بالحُبِّ والتشبيب!!؟.

إن دعوة الغدامي ذات أهمية كبيرة في رسم طُرُقٍ جديدةٍ للنقد الأدبيِّ صوب ما هو ثقافيٌّ؛ ولكن ليس بتشبيح النقد الأدبيِّ وإعدام توابعه الشعريَّة وسياقات حدائته المُتهمة بالرجعيَّة في تحليلٍ قسريٍّ؛ يُصبح فيه نزار قبَّاني فحلاً مُستهدداً؛ والقارئ ليس إلا عبداً؛ لأنه يقول:

إني خيرتك فاختاري

وأرى أن انتزاع أدبيَّة النصوص ونسف سقفها المجازيُّ: قد وُلِّدَ هذه الأخطاء التحليليَّة ومثيلاتها؛ وتحول بالكتاب من مُقترحٍ لخلاص النقد من نسقيَّته وتقليديَّته: إلى دعوةٍ لنبد:

﴿ الشعر؛ والحدائث؛ وأدبيَّة النقد ﴾

وهو ما لا يقبله منطق الأشياء...؛ الثقافيُّ.

